عالمية رحمة النبي صلى الله عليه وسلم
في ضوء وقائع السيرة النبوية.

أ.د عبد القادر سليماني

كلية العلوم الإنسانية والعلوم الاسلامية

جامعة وهران **1**

بسم الله الرحمن الرحيم.

الحمد لله والصلاة والسلام على محمد بن عبد الله، وعلى آله الأطهار، وأصحابه الأبرار، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين، وبعد:

لا شك أن منهج خير القرون، هو منهج أوسع دلالة، في المكان والزمان، وهو أعمق دائرة من أن يكون مجرد مقررات معرفية، دون أن يكون لها رصيد من العمل والسلوك، فهو دين التوحيد، الذي ينبثق منه الجانب الخلقي والسلوكي، الذي تكسوه بلا ريب، صفة من أعظم الصفات، وهي **صفة الرحمة**، التي تخلّق بها نبيّ الله محمد بن عبد الله عليه الصلاة والسلام، وقد وصفه بها المولى سبحانه وتعالى في عدّة آيات من الذكر الحكيم، فقال الله تعالى﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾، الأنبياء 107، وقال تعالى:﴿بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ﴾، التوبة128، ولم يكن النبي صلى الله عليه وسلم رحيما فقط، وإنما حثّ على الرحمة أيضا، فقد جاء في حديث أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعا:"إنه من لا يَرحم لا يُرحم"[1]، وفي رواية:"لا تُنزع الرحمة إلا من شقي".[2]

وعليه، فإنه لا يمكن لأي عاقل من الغربيين وغيرهم أن يتهجّموا على صاحب الخلق العظيم، صلى الله عليه وسلم، لكون ذلك يعتبر اعتداء على جميع الأنبياء والمرسلين، عليهم الصلاة والسلام، بل على الإنسانية قاطبة، ثم أليس أن معاني رحمته عليه الصلاة والسلام وآثارها قد تجاوزت حدود أمّته في الزمان والمكان؟!

فالمسلم في حاجة إلى أن يقف عند سيرته العطرة، وعند هديه، ويتأمل سنّته وأسلوبه في الحياة لاستخراج واستلهام المنهج الصحيح لتطبيق ما جاء في القرآن الكريم من أحكام.

وممّا يؤسف له أن بعض المسلمين لا يعرفون من السيرة النبوية إلا الغزوات، وكأن الإسلام حركة فتوح وقتال فحسب، وهذا أورث بعض الدارسين للإسلام من غير المسلمين، أن هذا الدين العظيم هو دين سبيله القتال والحروب، ولا يتطلّعون إلى المعاني الحضارية في القرآن الكريم، وفي هديه صلى الله عليه وسلم .

مع أن كتاب الله عز وجل عندما تحدث عن النبي صلى الله عليه وسلم، ذكر أنه جاء يحمل النور للناس جميعا، لينير العقول والقلوب، في قوله تعالى﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً وَدَاعِياً إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجاً مُّنِيراً﴾، الأحزاب45-46.

وهذه المقالة العلمية تهدف إلى بيان رحمة النبي صلى الله عليه وسلم في بعدها العالمي، من خلال سيرته العطرة، تبعا للمطالب التالية:

المطلب الأول: **الرحمة وأهميتها في بناء الإنسان.**

المطلب الثاني: **حثّ الإسلام على الرحمة بمفهومها الشامل والعام.**

المطلب الثالث: **عالمية رحمة النبي صلى الله عليه وسلم وخصائصها.**

المطلب الرابع: **كيف يمكننا التأسّي بالنبي صلى الله عليه وسلم في تحقيق الرحمة، وإبرازها للناس** ، من أجل تصحيح المفاهيم الخاطئة، ودفع الشبهات الباطلة، التي أُلصقت بالإسلام عموما، وبالنبي صلى الله عليه وسلم خصوصا.

المطلب الأول-الرحمة وأهميتها في بناء الإنسان:

-لا شك أن رحمة النبي صلى الله عليه وسلم هي من رحمة الله عز وجل، وأن هذه الرحمة خصيصة سائدة في شرع الإسلام كلِّه، كتابًا وسنة، ونظامًا وحياة، وتعاملاً مع الآخر، في كل حال من سلم أو حرب، وفي كل زمان ومكان.

-وأن رحمة الله سبحانه وتعالى بخَلْقِه هي من بين الصفات العظمى التي اختارها الله عز وجل لوصف نفسه بها، فعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال:"لما قضى الله الخلق كتب عنده فوق عرشه إن رحمتي سبقت غضبي" [3]، وروى البخاري في صحيحه في"باب أحبّ الأسماء إلى الله عز وجل"، من طريق جابر رضي الله عنه مرفوعا:"سمّ ابنك عبد الرحمن"،[4] وفي السنن من رواية عبد الله بن عمر رضي الله عنهما مرفوعا:"أحب الأسماء إلى الله عز وجل عبد الله وعبد الرحمن"،[5] قال الحافظ ابن حجر:"وقيل الحكمة في الاقتصار على الاسمين أنه لم يقع في القرآن إضافة عبد إلى إسم من أسماء الله تعالى غيرهما، قال الله تعالى:﴿وأنه لما قام عبد الله يدعوه﴾-الجن 19-، وقال في آية أخرى:﴿وعباد الرحمن﴾ -الفرقان 63-، ويؤيده قوله تعالى:﴿قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن﴾-الإسراء 110-. [6]

كما أن **الرحمة** كانت خصلة من خصال رسول الله صلى الله عليه وسلم، لم تفارقه قط في كل مراحل حياته وأحواله، وأنها تجسّدت في واقع حياته عليه الصلاة والسلام، بحيث كان على أعلى درجة في الحرص على الناس، والخوف الشديد عليهم من الهلاك والضلال، ورغبته الشديدة في رفع العنت عنهم، و **السيرة النبوية** شاهدة على خُلقه العالية، وقد شهد الله تعالى له بذلك في قوله﴿وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾، وعندما سئلت عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها عن خلقه عليه الصلاة والسلام، قالت:"كان خلقه القرآن". [7]

وإنه لتناسب وتآلف في أرقى مستوياته بين الرسالة والرسول في هذه **الرحمة**، حتى لا يُتصور أن يحمل عبء بلاغ هذه الرحمة إلى العالمين إلا رسول رحيم، ذو رحمة عامة شاملة فياضة، طبع عليها ذوقه ووجدانه، وصيغ بها قلبه وفطرته، وقد وصفه الله تعالى في كتابه بأنه رؤوف رحيم، فقال عز وجل:﴿لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رءوف رحيم﴾، التوبة:128، ووصفه بأنه رفيق بأصحابه رحيم بهم، فقال جل جلاله:﴿فبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظّاً غَلِيظَ الْقَلْبِ لاَنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ﴾،آل عمران 159.

وهذه **الرحمة** ملأت قلب النبي صلى الله عليه وسلم، حتى كادت تهلك نفسه الشريفة عليه الصلاة والسلام، حزناً وحسرة على البشرية قاطبة، لانصرافها عن الصراط المستقيم، ويشهد لذلك قوله تعالى:﴿فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا﴾ الكهف:6، أي مهلك نفسك بعد توليهم عنك، لحرصك على إيمانهم، رحمة منك.

المطلب الثاني-حثّ الإسلام على الرحمة بمفهومها الشامل والعام:

ولا شكّ أن النبي صلى الله عليه وسلم قد حرص على تذكير أتباعه بمنزلة الرحمة، وأهميتها، والتأكيد على أنها ليست خلقاً تكميلياً جمالياً، بل هي خلق لازم وواجب، ومما يحسن التنويه إليه، في هذا المقام، أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يسعى إلى نشر ثقافة الرحمة على أوسع نطاق بين الناس، ولم يكتفِ من أصحابه بالرحمة الخاصة التي تكون لا محالة بين أبناء الأسرة الواحدة، وبين الأقارب، والأصدقاء الخُلَّص، فهذه رحمة محمودة، وإنما المقصود من الرحمة في السنة النبوية هي الرحمة بمفهومها الشامل والعام، كما جاء في حديث **أبي موسى الأشعري** رضي الله عنه: أنه سمع النبي يقول:"لن تؤمنوا حتى تراحموا! قالوا: يا رسول الله كلنا

رحيم! قال:"إنه ليس برحمة أحدكم صاحبه ولكن رحمة العامة ..رحمة العامة!" [8]، أي بعامة البشر، ويجعل النبي صلى الله عليه وسلم ذلك من شروط الإيمان، فلا يُعدّ الرجل مؤمنًا حتى يرحم الناس بصفة عامة.

والرحمة بهذا المعنى هي خلق راق، وقيمة إنسانية عظيمة، وفي هذا المقام يقول النبي صلى الله عليه وسلم:"لا يرحم الله من لا يرحم الناس"[9]، وقال أيضاً:"الراحمون يرحمهم الله، ارحموا من في الأرض، يرحمكم من في السماء".[10]

وكان النبي صلى الله عليه وسلم يفاضل بين أصحابه، بقدر تَمَثُّلِ الرحمة في نفوسهم، ويجعلها ميزة لهم، فها هو يقول:"أرحم أمتي بأمتي أبو بكر"، وفي رواية أخرى:"أرحم هذه الأمة بها أبو بكر"، وهذا تنويه من النبي صلى الله عليه وسلم بمنزلة الرحمة، وبقيمتها حين كشف لأصحابه، أنها من مسوغات تفضيل أبي بكر رضي الله عنه عليهم جميعاً.

فجدير بالمسلمين أن يعودوا إلى هديه صلى الله عليه وسلم، بقراءة دقيقة متأنية وفاحصة؛ ليلتمسوا من سنته صلى الله عليه وسلم معالم طريق النجاة الذي أخبر عنه عليه الصلاة والسلام، والمتمثّل فيما كان عليه هو وأصحابه[11]، ولنا فيه القدوة الكاملة والتامة، لقوله تعالى:﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيراً ﴾، الأحزاب-21، وأن يتحلّوا **بأخلاقه الراقية**، بناء على أن الإسلام هو رسالة أخلاق ومعاملات، وفي هذا المقام يقول النبي صلى الله عليه وسلم:"إنما بعثت لأتمم صالح الأخلاق".[12]

ومن أعظم هذه الأخلاق **خلق الرحمة**، التي وصف الله عز وجل بها نبيّه صلى الله عليه وسلم، وهو أهل بها، والدّارس للسيرة النبوية يلمس هذه الرحمة بالخَلق عمليا في كل أموره وسننه وأيامه عليه الصلاة والسلام.

المطلب الثالث-عالمية رحمة النبي صلى الله عليه وسلم وخصائصها:

إن رحمة النبي صلى الله عليه وسلم بُعد مهم في شخصيته، وفي **دعوته العالمية**، مبلغاً عن ربه وهادياً للناس كافة، وحينما نقرأ قوله تعالى:﴿ **وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ**﴾،الأنبياء 107، ندرك تماما سعة رحمة هذا النبي الكريم صلى الله عليه وسلم، وكيف كان يفيض رحمة في خُلقه وسلوكه وآدابه وشمائله.

1-**وقد اختلف أهل التأويل** في معنى هذه الآية الكريمة: هل المقصود منها جميع العالم الذي أرسل إليهم محمد بن عبد الله عليه الصلاة والسلام، مؤمنهم وكافرهم، أم أريد بها أهل الإيمان خاصة دون أهل الكفر ؟! ذكر **ابن جرير الطبري** في هذا الباب قولين:

القول الأول: أنه عني بها جميع العالم المؤمن والكافر، ودليلهم في ذلك: رواية ابن عباس في قوله تعالى الله: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾، قال: من آمن بالله واليوم الآخر كتب له الرحمة في الدنيا والآخرة، ومن لم يؤمن بالله ورسوله عوفي مما أصاب الأمم من الخسف والقذف".

والقول الثاني:أنه أريد بها أهل الإيمان دون أهل الكفر، ودليلهم رواية ابن زيد في قوله:﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾، قال العالمون من آمن به وصدقه".

ورأى أن **أولى القولين** في ذلك بالصواب:القول الذي روي عن ابن عباس، وهو أن الله أرسل نبيه محمدا صلى الله عليه وسلم رحمة لجميع العالم مؤمنهم وكافرهم:

-فأما مؤمنهم، فإن الله هداه به، وأدخله بالإيمان به، وبالعمل بما جاء من عند الله الجنة.

-وأما كافرهم، فإنه دفع به عنه عاجل البلاء الذي كان ينزل بالأمم المكذِّبة رسلها من قبله".[13]

وجملة القول فالنبي صلى الله عليه وسلم هو **رحمة شاملة وعامة** للوجود بأجمعه، إنسه وجنه، ودوابه وجماده، جميعهم له نصيب من هذه الرحمة الربانية، وفي هذا يقول عليه الصلاة والسلام:"**أنا رحمة مهداة**"[14]، وعندما قيل له:يا رسول الله ادع على المشركين قال:"إني لم أُبعث لعّانًا، وإنما بُعثت رحمة".[15]

2-**ويستفاد** من قول الله تعالى ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ الأنبياء- 107، في ضوء ما جاء في السنة النبوية، **أبرز خصائص رحمة النبي** صلى الله عليه وسلم، من حيث أنها **رحمة شاملة وعامة أخذت بعدها العالمي**:

- فهي ليست عنصرية تقوم على الأعراق أو الألوان أو المذاهب.

-كما أنها ليست رحمة للعرب دون العجم، وللمسلمين دون غيرهم، بل هي رحمة إنسانية عامة لكل البشر، شملت المسلم وغير المسلم، والعربي وغير العربي، والكبير والصغير، والرجل والمرأة، والحيوان والجماد،**فهي رحمة عالمية**.

والمقرّر أن الدين الإسلامي مبني أصلا على هذا الأساس، وفي هذا يقول النبي صلى الله عليه وسلم:"يا أيها الناس ألا إن ربكم واحد، وإن أباكم واحد، ألا لا فضل لعربي على أعجمي، ولا لعجمي على عربي، ولا لأحمر على أسود، ولا لأسود على أحمر، إلا بالتقوى".[16]

- وعن **جابر بن عبد الله** رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:"...وكان النبي يبعث إلى قومه خاصة، وبعثت إلى الناس كافة..."[17]، وفي رواية:"...كان كل نبي يبعث إلى قومه خاصة، وبعثت إلى كل أحمر وأسود..."[18].

- وعن **المسور بن مخرمة** رضي الله عنه قال: خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم على أصحابه فقال:"إن الله بعثني رحمة للناس كافة".[19]

ومن ثم كان رسول الله عليه الصلاة والسلام رحمة لأمته خاصة، وللبشرية عامة، وفي هذا المقام تقول **لورافيشيا فاغليري**:"إن الآية القرآنية التي تشير إلى **عالمية الإسلام**، بوصفه الدين الذي أنزله الله على نبيه -صلى الله عليه وسلم- رحمة للعالمين، هي نداء مباشر للعالم كله؛ وهذا دليل ساطع على أن محمدًا -صلى الله عليه وسلم- شعر في يقين كلّي أن رسالته مقدر لها أن تعدو حدود الأمة العربية، وأن عليه أن يبلغ الكلمة الجديدة إلى شعوب تنتسب إلى**أجناس مختلفة**، وتتكلم **لغات مختلفة**".[20]

3-وقد تمثّلت **رحمته العالمية** - عليه الصلاة والسلام- في **خدمة الإنسانية**:

بحيث عاش صلى الله عليه وسلم حياته الدعوية في خدمة الإنسان، في جميع مجالات الحياة (العقيدة والعبادة والمعاملات والأخلاق...)، يخدم الإنسان، ويهذبه، ويربيه، ويعلمه، ليكون عنصرا نافعا في مجتمعه الإنساني، في البعدين الزماني والمكاني.

وفي هذا المقام يقول **أحمد سوسة**:"لقد كان محمد -صلى الله عليه وسلم - أنموذجًا **للحياة الإنسانية** بسيرته وصدق إيمانه ورسوخ عقيدته القويمة، بل مثالاً كاملاً للأمانة والاستقامة وإن تضحياته في سبيل بث رسالته الإلهية خير دليل على سموّ ذاته ونبل مقصده وعظمة شخصيته وقدسية نبوته...وما حياة الرسول-صلى الله عليه وسلم -سوى سلسلة وقائع تاريخية عظيمة الشأن نبيلة المرمى يتجلى فيها مقامه السامي من **الحلقة الإنسانية**".[21]

وفي **الموسوعة البريطانية**:"إن محمداً-صلى الله عليه وسلم -،اجتهد في نجاة أمته...،وبالأصح: اجتهد في سبيل **الإنسانية** جمعاء".

وسأقف عند بعض المقامات التي تتجلى من خلالها رحمة النبي صلى الله عليه وسلم في بعدها الإنساني والعالمي:

أ- عالمية رحمة النبي صلى الله عليه وسلم في الدعوة إلى الله عز وجل: بإخراج الناس من الظلمات إلى النور ما استطاع إلى ذلك سبيلا:وفي هذا يقول الله تعالى:﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً * وَدَاعِياً إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجاً مُّنِيراً﴾،الأحزاب-45، 46، وفي **الصحيحين** من حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم:"إنما مثلي

ومثل **الناس** كمثل رجل استوقد نارا فلما أضاءت ما حوله، جعل الفراش وهذه الدواب التي في النار ، يقعن فيها، فجعل ينزعهن ويغلبنه فيقتحمن فيها، فأنا آخذ بحجزكم عن النار وأنتم تقحمون فيها".[22]

وذكر **مسلم** هذا الحديث في"باب: **شفقته** صلى الله عليه وسلم على أمته ومبالغته في تحذيرهم ممّا يضرّهم"، وهكذا ظلّ رسول الله صلى الله عليه وسلم يدعو الناس للإسلام **كدين عالمي**، مشفقا على الإنسان، رحيما ورؤوفا به، يكشف عنه الشبهات، وينير له الطريق، نورا هاديا، كالسراج المنير في الظلمات.

وفي هذا الباب يقول المستشرق الإيرلندي" **المستر هربرت وايل** ":"بعد ستمائة سنة من ظهور المسيح ، ظهر محمد–صلى الله عليه وسلم– فأزال كل الأوهام، وحرَّم عبادة الأصنام، وكان يلقبه الناس بالأمين، لما كان عليه من الصدق والأمانة، وهو الذي أرشد أهل الضلال إلى الصراط المستقيم".[23]

وتقول **لورافيشيا فاغليري**:"دعا الرسول العربي–صلى الله عليه وسلم– بصوت ملهم باتصال عميق بربه.. دعا عبدة الأوثان، وأتباع نصرانية ويهودية محرّفتين، على أصفى عقيدة توحيدية، وارتضى أن يخوض صراعًا مكشوفًا مع بعض نزعات البشر الرجعية التي تقود المرء إلى أن يشرك بالخالق آلهة أخرى..".[24]

وجملة القول، فقد بذل النبي صلى الله عليه وسلم جهودا في سبيل إرشاد الإنسان إلى الصراط المستقيم، فقد كان حامل رسالة سماوية تنويرية، عنوانها لا إله إلا الله، وما تتضمّن من المعاني الجليلة، التي تهدف إلى إصلاح حياة البشرية عامة، وتحريرها من عبادة الأوثان إلى عبادة الواحد الديان، ومن الوثنية المظلمة إلى الحضارة المستنيرة.

ب– عالمية رحمة النبي صلى الله عليه وسلم في حرية الاعتقاد وممارسة الشعائر، من خلال صحيفة المدينة:

شكّلت هذه الصحيفة، ولا زالت تشكّل نموذجا حضاريا للتعايش في إطار السلم والسلام، والأمن والأمان؛ وقد تضمّنت جميع الحقوق الإنسانية، التي يشار إليها بمبادئ المجتمع المدني المتحضر، ومن بينها مبدأ **حق حرية الاعتقاد، وممارسة الشعائر الدينية،** الذي اصطلح عليه في المواثيق الدولية الحديثة بالشعور بالحرية في اعتناق المعتقدات والأديان، دون جبر أو إكراه.

وهناك ثلاثة مواثيق عالمية تطرقت لمسألة الحرية الدينية في العصر الحاضر:

–الإعلان العالمي لحقوق الإنسان، الذي تبنته الأمم المتحدة عام ١٩٤٨.

–والعهد الدولي للحقوق المدنية والسياسية، الصادر عام ١٩٦٦.

–وإعلان الأمم المتحدة بشأن القضاء على جميع أشكال التعصب والتمييز القائمين على أساس الدين أو المعتقد، الصادر عام ١٩٨١.

وهذه التعاليم العالمية فيما يتعلق بحرية الدين، مسبوقة بما جاء في صحيفة المدينة، فقد حوت جميع المبادئ الأساسية التي تضمن الحق في حرية التفكير والتدين، وممارسة الشعائر الدينية من دون مضايقات.

وأهم بنود الصحيفة المتعلقة بباب حرية التدين ما يلي:

–حماية أهل الذمة والأقليات غير الإسلامية:

وجاء في الوثيقة:"وإنه من تبعنا من يهود فإن له النصر والأسوة، غير مظلومين ولا متناصرين عليهم".[25]

وهو أصل أصيل في رعاية أهل الذمة، والمعاهدين، أو الأقليات غير الإسلامية التي تخضع لسيادة الدولة وسلطان المسلمين، فلهم—إذا خضعوا للدولة—حق النصرة على من رامهم أو اعتدى عليهم بغير حق، سواء من المسلمين أو من غير المسلمين، من داخل الدولة أو من خارجها.

–حرية الاعتقاد، وممارسة الشعائر مكفولة لكل فصائل المجتمع :

جاء في الوثيقة:"وإن يهود بني عوف أمة مع المؤمنين، لليهود دينهم، وللمسلمين دينهم، ومواليهم وأنفسهم إلا من ظلم نفسه وأثِم، فإنه لا يوتغ إلا نفسه وأهل بيته".[26]

ومفادهما أن موقف كل طرف، من ناحية الدين وتشريع القوانين، المتعلقة بالمجتمع في تنظيم الحياة اليومية، سيبقى كما هو، بحيث تستطيع الطوائف المختلفة التعبير عن نفسها في هذه المجالات الحيوية بكل حرّية، في إطار المقاييس القانونية والدستورية المحدّدة في الصحيفة.

وأصل عالمية رحمة النبي صلى الله عليه وسلم في هذا الباب هو قوله تعالى:﴿ **لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ** قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىَ لاَ انفِصَامَ لَهَا وَاللّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾، البقرة-256.

وقوله عز وجل:﴿**وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَاء فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاء فَلْيَكْفُرْ** إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَاراً أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِن يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاء كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءتْ مُرْتَفَقاً﴾، الكهف-29.

وفي هذا المقام يقول" **جيمس متشنر**":"القرآن صريح في تأييده لحرية العقيدة، والدليل قوي على أن الإسلام رحب بشعوب مختلفة الأديان، ما دام أهلها يحسنون المعاملة، وقد حرص محمد -صلى الله عليه وسلم- على تلقين المسلمين التعاون مع أهل الكتاب، أي اليهود والنصارى، ...وقد قطع الرهبان بأن أهل الكتاب كانوا يُعاملون معاملة طيبة وكانوا أحراراً في عبادتهم".[27]

ويقول روبرتسون:"إن المسلمين وحدهم هم الذين جمعوا بين الجهاد والتسامح نحو أتباع الأديان الأخرى الذين غلبوهم وتركوهم أحراراً في إقامة شعائرهم الدينية".[28]

ج- عالمية رحمة النبي صلى الله عليه وسلم في تحضر العالم ورقيه

من مظاهر **رحمته** صلى الله عليه وسلم **العالمية** أنه ارتقى بالعرب إلى مستوى التحضر، فوحّد صفهم، وأقام لهم دولة، وجعل منهم أمة، وصفها القرآن بأنها خير أمة أخرجت للناس، أمة ارتقت إلى المدنية والتحضّر، بعدما كانت تعيش في صراعات قبلية، واقتتال على ناقة وعنزة، هذا ولم يقتصر فضل النبي صلى الله عليه وسلم على تحضر العرب وحدهم، بل امتد خيره ونوره إلى شعوب وأمم أخرى، وما ذك إلا أن الإسلام حثّ على العلم وترقيته باستمرار.

وفي هذا المقام يقول:" **المستر سنكس**" أن لمحمد الفضل الأكبر ليس فقط في رقي العرب بل في رقي العالم كله حتى اليوم، فيقول سنكس:"ظهر محمد -صلى الله عليه وسلم- بعد المسيح بخمسمائة وسبعين سنة، وكانت وظيفته ترقية عقول البشر، بإشرابها الأصول الأولية للأخلاق الفاضلة، وبإرجاعها إلى الاعتقاد بإله واحد، وبحياة بعد هذه الحياة..."إلى أن قال:"إن الفكرة الدينية الإسلامية، أحدثت رقياً كبيراً جداً في العالم، وخلّصت العقل الإنساني من قيوده الثقيلة التي كانت تأسره حول الهياكل بين يدي الكهان، ولقد توصل محمد -صلى الله عليه وسلم- بمحوه كل صورة في المعابد وإبطاله كل تمثيل لذات الخالق المطلق، إلى تخليص الفكر الإنساني من عقيدة التجسيد الغليظة".[29]

ويقول: المفكر"**برتلي سانت هيلر**"مبينا أن فضل النبي محمد صلى الله عليه وسلم، يمتد إلى كل شعوب العالم، بقوله: "وقد كان دينه-صلى الله عليه وسلم-الذي دعا الناسَ إلى اعتقاده، جزيلَ النعم على جميع الشعوب التي اعتنقته".[30]

ويقول الكاتب الفرنسي "**موريس بوكاي**"مبينا أن الشعوب الغربية هم أكثر الشعوب إستفادة من حضارة الإسلام، فقال: "إن الإسلام ينظر إلى العلم والدين كتوءمين، وأن تهذيب العلم كان جزءاً من التوجيهات الدينية منذ البداية، وأن تطبيق هذه القاعدة أدى إلى التقدم العلمي العجيب في عصر الحضارة الإسلامية العظمى،التي استفاد منها الغرب قبل نهضته".[31]

د- عالمية رحمة النبي صلى الله عليه وسلم في وضع أسس وقواعد الاقتصاد العالمي:

لا شك أن من مظاهر **رحمة** النبي صلى الله عليه وسلم، السماحة والسهولة في المعاملات المالية، واستعمال معالي الأخلاق، وترك المشاحنات، وتجنب إرهاق الناس بالمطالبة أو المماطلة، والحث على إنظار المعسر والرفق به، والتساهل في الشراكة المالية،

والمساهمة في سداد الديون عن المدينين، والكرم والعطاء بين المتعاقدين، **بناء على توجيهات : القرآن الكريم**، حيث قال الله تعالى:﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللّهَ وَذَرُواْ مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾البقرة-278، وقال عز وجل:﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لاَ يَقُومُونَ إِلاَّ كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُواْ إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا وَأَحَلَّ اللّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا فَمَن جَاءهُ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِ فَانتَهَىَ فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللّهِ وَمَنْ عَادَ فَأُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ البقرة-275.

وفي **السنة النبوية** جملة من النصوص، مفادها رفع الحرج والغبن عن الناس في المعاملات المالية:

عن **جابر بن عبد الله** رضي الله عنه: أنّ رسولَ اللَّه صلى الله عليه وسلم قال:"رحم الله رجلا سمحا إذا باع وإذا اشترى وإذا اقتضى".[32]

وعن **حَكِيمِ بْنِ حِزَامٍ** رضي الله عنه قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم:"البيعان بالخيار ما لم يتفرقا أو قال حتى يتفرقا فإن صدقا وبينا بورك لهما في بيعهما وإن كتما وكذبا محقت بركة بيعهما".[33]

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "كان تاجر يداين الناس فإذا رأى معسرا قال لفتيانه تجاوزوا عنه لعل الله أن يتجاوز عنا، فتجاوز الله عنه".[34]

وبناء على هذه القواعد والضوابط الأخلاقية في المعاملات المالية، أصبح النظام المصرفي الإسلامي منافسا للنظام المصرفي الغربي، بتحقيقه معدل نمو سنوي في تزايد مستمر، ولم يكن هذا النظام معروفا من قبل، ضمن النظام المالي العالمي، وهذا التطور الإيجابي أثار انتباه المجتمعات الغربية ، خاصة بعد الأزمة المالية العالمية، التي كان سببها الرئيسي الاعتماد الكلي على نظام الفائدة كآلية جوهرية لإدارة النظام المصرفي، وما تفرّع عن ذلك من اضطرابات متعددة في النظام المالي.

وهذا ممّا دعا المنظومة المالية الغربية في التفكير لضم النظام المصرفي الإسلامي لنظامها المصرفي، فقد ذهب مجلس الشيوخ الفرنسي في تقرير أعدته لجنة تعنى بالشؤون المالية في المجلس:إلى أن النظام المصرفي الذي يعتمد على قواعد مستمدة من الشريعة الإسلامية مريح للجميع، مسلمين وغير مسلمين.

هـ- وشملت **عالمية رحمة النبي صلى الله عليه وسلم** عدّة مجالات أخرى:

- في **إرساء قواعد وأسس حقوق الإنسان**، من خلال خطبة الوداع ووثيقة المدينة، وغيرهما من التعاليم والإرشادات النبوية، التي هي بمثابة **المواثيق الدولية والعالمية** في عصرنا الحاضر، كقضية حقوق المرأة، والطفل، والشيخ العجوز، والأسير، والذمي، وما شابه ذلك.

- و**في نشر ثقافة الوسطية والاعتدال**، ونبذ العنف والتطرف.

- و**في نشر ثقافة الحوار** (على مستوى الأسرة، والمجتمع، والأمة، والأمم ...)

-وفي **نشر ثقافة السلم والسلام** ...

- و**في نشر ثقافة الشورى، ونبذ الاستبداد** ...

- و**في تحريم الاتجار بالبشر، وتحرير العبيد** ...

وكلّ هذا يعتبر فيض من غيض، يستفاد منه حقيقة **رحمة** النبي صلى الله عليه وسلم بالإنسانية في إطارها العالمي -universal humanite-، مع العلم أن الله تبارك وتعالى قد حصر رسالة المصطفى صلى الله عليه وسلم في **الرحمة العالمية** في قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾،الأنبياء-107.

فهل تبقى أية قيمة لحديث البشر بعد هذا الثناء الربّاني والتوجيه الرحماني، ولا شك أن الإنسانية التائهة والبشرية الضائعة وجدت ضالتها في بعثة النبي صلى الله عليه وسلم من حيث السمو والرفعة، والسِّلم والسَّلام، والأمن والأمان، لأن الهدف هو الإنسان، والغاية هي سعادته ونجاته.

وإذا ما نظرنا في جوانب هذه البعثة السمحاء سنجد ذلك متجلياً في مختلف الأوامر والنواهي، سواء القضايا العقدية أو التشريعية أو الأخلاقية.

المطلب الرابع-كيف يمكننا التأسّي بالنبي صلى الله عليه وسلم في تحقيق الرحمة، وإبرازها للناس ، من أجل تصحيح المفاهيم الخاطئة، ودفع الشبهات الباطلة، التي أُلصقت بالإسلام عموما، وبالنبي صلى الله عليه وسلم خصوصا.

لا شك أن الله عز وجل قد رفع ذكر نبيه صلى الله عليه وسلم في محكم التنزيل، ومن رفع الله ذكره لا يحط في الناس وإن اجتمعوا له، وإنما يحطون من أنفسهم.

وما صدر من تلك الإساءات، سواء من قبل الرسوم الكاركاتورية، أو من تصريحات لرجال دين مسيحيين متعصبين، أو إعلام غربي مصهين، بدعوى حرية التعبير، إنما هي إساءة لكل البشرية، وإلى كل الأنبياء والشرائع السماوية، وما هذا العمل الدنيء إلا خروج عن الإنسانية، خاصة وأن آراء المنصفين من علماء الغرب أنفسهم، قالوا كلمة الحق وشهادة الصدق في النبي صلى الله عليه وسلم، وشهدت له بمكانته العالية.

ومن هنا يجب على المسلمين دفع هذه الإساءات وهذه الشبهات بطريق مشروع، وبأسلوب يرفع كل لبس عن الإسلام، وعن نبوة محمد بن عبد الله عليه الصلاة والسلام، وذلك:

بالتأسّي به صلى الله عليه وسلم، في جميع مجالات الحياة، لقوله تعالى: ﴿ لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجوا الله واليوم الآخر﴾،الأنبياء-107، وهي شهادة من الله سبحانه وتعالى لنبيه عليه الصلاة والسلام على خصاله العالية التي أهّلته بإذن الله ليكون الأسوة والقدوة الحسنة، للمسلمين، ولغير المسلمين، وهو القائل:" أنا رحمة مهداة ".[35]

وعليه **فالتأسّي بالنبي صلى الله عليه وسلم** ينبغي أن يبدأ من داخل الأسرة، إلى أن يصير ثقافة راسخة في المجتمع.

فقد كان صلى الله عليه وسلم خير الناس وخيرهم لأهله، من طيب كلامه، وحُسن معاشرة زوجاته بالإكرام والاحترام، حيث قال عليه الصلاة والسلام:"خيركم خيركم لأهله وأنا خيركم لأهلي".[36]

كما أنه في تعامله مع أهله وزوجه كان يُحسن إليهم، ويرأف بهم، ويتودّد إليهم، فكان يمازح أهله ويلاطفهم ويداعبهم.

كما كان يعين أهله ويساعدهم في أمورهم ويكون في حاجتهم، عن عائشة قالت: كنت أغتسل أنا ورسول الله صلى الله عليه وسلم من إناء بيني وبينه واحد، فيبادرني حتى أقول دع لي دع لي".[37]

وكان صلى الله عليه وسلم رحيماً بالجميع، بل إنه يسمع بكاء الصبي فيسرع في الصلاة مخافة أن تفتتن أمه، وكان يمر بالصبيان فيسلم عليهم.

فرحمة النبي صلى الله عليه وسلم جعلته لطيفاً رحيماً، فلم يكن فاحشاً ولا متفحّشا، ولا صخّابا في الأسواق، ولا يجزي بالسيئة السيئة، ولكن يعفو ويصفح، بل إن أنس بن مالك رضي الله عنه قال:"خدمت النبي صلى الله عليه وسلم عشر سنين، والله ما قال أفّ قط، ولا قال لشيء لم فعلت كذا، وهلا فعلت كذا"[38]، وعن عائشة رضي الله تعالى عنها، قالت:"ما ضرب رسول الله صلى الله عليه وسلم خادماً له، ولا امرأة،ولا ضرب بيده شيئاً قط إلا أن يجاهد في سبيل الله".[39]

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه: كان غلام يهودي يخدم النبي صلى الله عليه وسلم فمرض، فأتاه النبي صلى الله عليه وسلم يعوده، فقعد عند رأسه، فقال له:"أسلم"، فنظر إلى أبيه وهو عنده، فقال له: أطع أبا القاسم! فأسلم، فخرج النبي صلى الله عليه وسلم وهو يقول:"الحمد لله الذي أنقذه من النار".[40]

نعم إنه **الرحمة المهداة** عليه الصلاة والسلام، وقد شملت رحمته حتى غير المسلم، والمطلوب هو تجسيد هذه الأخلاق العالية في الأمة الإسلامية خصوصا، وفي المجتمعات الغربية عموما، لبيّنوا الوجه الصحيح للإسلام، وللنبي عليه الصلاة والسلام.

فالأمة الإسلامية هي **أمة رسالة**، و**أمة رحمة**، قال الله تعالى ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾،الأنبياء 107، وعن سهل بن سعد الساعدي رضي الله عنه أنه سمع النبي صلى الله عليه وسلم يقول:"...فوالله لأن يهدي بك رجلا واحدا خير لك من حمر النعم".[41]

الهوامش

1- **أخرجه البخاري في صحيحه (5651، 5/2335)، ومسلم في صحيحه (2318، 4/1808).**

2- أخرجه في السنن أبو داود (4942، 4/286)، والترمذي (1923، 4/323)، وابن ماجه (3959، 2/1309), وقال أبوعيسى: "حديث حسن".

3- أخرجه البخاري في صحيحه (7015، 6/2712) واللفظ له، ومسلم في صحيحه (2751، 4/2107).

4- صحيح البخاري (5832، 5/2287)

5- أخرجه أبو داود (4949، 4/287)، والترمذي (2833،5/132)، والنسائي (3565، 6/218)، وابن ماجه (3728، 2/1229)، وصحّحه الألباني في السلسلة الصحيحة (3/34)، والكلم الطيب (ص164)، وصحيح أبي داود (4949)، وغيرها.

6- فتح الباري (10/570).

7– أخرجه البخاري في الأدب المفرد (308،1/115)، وصحّحه الألباني، في صحيح الأدب المفرد (الرقم:234).

8– رواه الحاكم في المستدرك، برقم:7310، 4/185، وقال هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه، ورواه الطبراني ورواته رواة الصحيح، وحسنه لغيره الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (2253).

9– أخرجه البخاري في صحيحه (6941، 6/2686)، ومسلم في صحيحه (2319، 4/1809) من حديث جرير بن عبد الله رضي الله عنه.

10– أخرجه أبو داود في سننه (4941، 4/285)، والترمذي في سننه (1924، 4/323)، وقال:"هذا حديث حسن صحيح"، وصحّحه الألباني في صحيح أبي داود (4941)، وفي صحيح الترمذي (1924).

11– إشارة إلى ما أخرجه أبو داود في سننه (4597، 4/198) من حديث معاوية بن أبي سفيان:" ألا إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قام فينا فقال:" ألا إن من قبلكم من أهل الكتاب افترقوا على ثنتين وسبعين ملة، وإن هذه الملة ستفترق على ثلاث وسبعين، اثنتان وسبعون في النار وواحدة في الجنة، وهي الجماعة"، ورواه الترمذي في سننه (2641، 5/26) من حديث عبد الله بن عمرو بلفظ :"وإن بني إسرائيل تفرقت على ثنتين وسبعين ملة وتفترق أمتي على ثلاث سبعين ملة كلهم في النار إلا ملة واحدة، قالوا: ومن هي يا رسول الله؟ قال:"ما أنا عليه وأصحابي".

12– أخرجه الحاكم في المستدرك (4221، 2/670)، من حديث أبي هريرة، وقال:"هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه"، وأحمد في مسنده (8939، 2/381)، وابن أبي شيبة في مصنفه (31773، 6/324)، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (9/15):"ورجال أحمد رجال الصحيح، ورواه البزار إلا أنه قال:" لأتمم مكارم الأخلاق"، ورجاله رجال الصحيح غير محمد بن رزق الله الكلوداني وهو ثقة"، ورواه مالك في الموطأ بلاغا بلفظ:"لأتمم حسن الأخلاق"، وأوصله ابن عبد البر في التمهيد (228، 24/333) بلفظ :" لأتمم صالح الأخلاق".

13– أنظر ابن جرير الطبري (17/106)، وتفسير ابن كثير (3/203)، وحديث ابن عباس رواه ابن جرير في التفسير (17/106) من طريق إسحاق الأزرق عن المسعودي عن رجل يقال له سعيد، والطبراني في المعجم الكبير (12358، 12/23) من طريق أيوب بن سويد عن المسعودي عن حبيب بن أبي ثابت، كلاهما عن سعيد بن جبير عن ابن عباس ﴿وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين﴾،قال: من تبعه كان له رحمة في الدنيا والآخرة، ومن لم يتبعه عوفي مما كان يبتلى سائر الأمم من المسخ والخسف والقذف"، قال الهيثمي في مجمع الزوائد (7/69):"وفيه أيوب بن سويد وهو ضعيف جدا، وقد وثقه ابن حبان بشروط فيمن يروى عنه، وقال إنه كثير الخطأ، والمسعودي قد اختلط"؛ قلت: لعلّه ابن المرزبان، هكذا رواه ابن أبي حاتم من حديث المسعودي عن أبي سعد،ة وهو سعيد بن المرزبان البقال، عن سعيد بن جبير عن ابن عباس فذكره بنحوه، والله أعلم.

14– أخرجه الحافظ ابن عساكر عن أبي هريرة مرفوعا، وسئل البخاري عن هذا الحديث، فقال:" كان عند حفص بن غياث مرسلا.

15– رواه مسلم في صحيحه من حديث أبي هريرة (2599، 4/2006).

16– رواه أحمد في مسنده (23536، 5/411)، والطبراني في المعجم الأوسط (4749،5/86)، من طريق أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (برقم 2700).

17– رواه البخاري في صحيحه (427، 1/167).

18– رواه مسلم في صحيحه (521، 1/370).

19– الهيثمي في مجمع الزوائد (5/305).

20– لورافيشيا فاغليري، دفاع عن الإسلام (ص 24 – 25)؛ وهي باحثة إيطالية في التاريخ الإسلامي واللغة العربية، من مؤلفاتها أيضا: قواعد العربية، والإسلام.

21– أحمد سوسة، في طريقي إلى الإسلام ص 1 / 174 – 175.

22– البخاري (6118، 5/2379) ، ومسلم (2284، 4/1789.

23– هربرت وايل، المعلم الأكبر ، ص 17.

24– لورافيشيا فاغليري، دفاع عن الإسلام ، ص 43.

25– ابن هشام (أبو محمد بن عبد الملك)، السيرة النبوية، دمشق: دار الفكر، د. ت ، (501/1)؛ وأنظر ابن القيم (محمد بن أبي بكر أيوب الزرعي)، زاد المعاد في هدي خير العباد، دار الكتاب العربي ، بيروت (دت ، در)، (70/2).

26– ابن هشام (أبو محمد بن عبد الملك)، السيرة النبوية، المصدر نفسه (501/1) .

27– محمد أمين حسن، خصائص الدعوة الإسلامية، ص 166.

28– شوقي أبو خليل، الإسلام في قفص الاتهام، 125.

29– آن بيزينت، حياة وتعاليم محمد ، ص5.

30– محمد شريف الشيباني، الرسول في الدراسات الإستشراقية المنصفة، ص: 204.

31– موريس بوكاي، التوراة والإنجيل والقرآن والعلم، ص: 14.

32– أخرجه البخاري في صحيحه (1970، 730/2).

33– أخرجه البخاري في صحيحه (1973، 732/2).

34– أخرجه البخاري في صحيحه (1972، 731/2)، ومسلم في صحيحه (1562، 1196/3).

35– أخرجه الحافظ ابن عساكر عن أبي هريرة مرفوعا، وسئل البخاري عن هذا الحديث، فقال:" كان عند حفص بن غياث مرسلا.

36– رواه الترمذي في سننه (3895، 709/5)، وابن ماجه في سننه (1977، 636/1)، وقال أبوعيسى: هذا حديث حسن غريب صحيح.

37– رواه مسلم في صحيحه (321، 257/1).

38– رواه البخاري في صحيحه (5691، 2245/5) ، ومسلم في صحيحه (2309، 1804/4).

39– رواه مسلم في صحيحه (2328، 1814/4).

40– رواه البخاري في صحيحه (1290، 455/1).

41– رواه البخاري في صحيحه (2783، 1077/3)، ومسلم في صحيحه (2406، 1872/4).